الباب الثالث

العصر العباسي[1]

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل فوجد سبيلا إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملوك هذه الدولة ينمون إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، انتزعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمعونة الفرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثل ذلك العرش هولاكو سنة ست وخمسين وستمائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

ونختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسة وعمرانية كان لها الأثر الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

---

(1) ينسب هذا العصر إلى العباسيين على وجه من التغليب لوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه؛ ولكن الكلام فيه يتناول العباسيين في بغداد، والبويهيين في فارس، والحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر والمغرب. والأمويين في الأندلس.

إلا أن هذه الأصقاع على تباينها إنما كانت قائم بهدى بغداد وتستمد منها فليس لها في الغالب أدب مستقل، لذل لا نذكرها إلا لماما.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها [1] وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعا بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل، واختلاط المدنية الآريَّة بالمدنية السامية، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى. ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرق[2] وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجواري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمجون، والتأنق في الطعام واللباس، والتنافس في البناء والرياش. وكل ذلك له أثر بين في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور.

---

(1) كانت موقعة الزاب بين الخراسانيين ومروان ابن محمد رداً غير حاسم على موقعة القادسية بين العرب والفرس، فإن بني ساسان الذين طأطأ الفتح من إشرافهم، وخطم الأمويون بالذل ألوف أشرافهم، لم يستطيعوا أن يريضوا الأمور لهم، ولا أن يعيدوا السلطان فيهم؛ لأن العرب طبعوهم بطابعين قويين لا يزولان أبد الدهر. وهما الدين واللغة، فوقفوا من الأمر عند الثأر من عصبية الأمويين، بنقل الملك منهم إلى العباسيين، وأخذوا يحركون أيدي الخلفاء بما يريدون وبنو العباس يعرفون لهم تلك اليد، ويحتملون منهم هذه الدالة، حتى خشى طغيانهم أبو جعفر المنصور فكفكه بقتل أبي مسلم. ثم ما لبث أن عاد هذا الطغيان فامتد واشتد في عهد الرشيد فاستأصله بقتل البرامكة. ولكنه انتعش ثانية بالحلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وما استتبع من الحرب بين العنصرين العربي والفارسي، حتى بلغ تمامه في عهد بني بويه. فلم يخضد شوكته ويفلل شباه إلا بنو سلجوق من الترك. على أن نفوذهم الأدبي والعقلي كان أوسع وأعمق من أن يكسر منه هذا الفشل السياسي، فظهر أثره في اللغة والأدب والفقه والفلسفة والأخلاق وكان من هذا الأثر أولا، ومن أثر العناصر الأخرى ثانياً، هذه الحضارة العباسية والمدنية الإسلامية التي مازت الطيب من الخبيث، ووصلت العالم القديم بالعالم الحديث.

(2) نجمت في الأمة الإسلامية من غير أهل السنة فرق كثيرة يكفر بعضها بعضاً! وانشعبت كل فرقة إلى فرق متعددة ترى كل واحدة منها الحق معها دون الأخرى. ومن أشهر هذه الفرق المعتزلة وهم عشرون فرقة، والشيعة وهم اثنتان وعشرون، والخوارج وهم سبع فرق وكل أولئك منهم جبرية ومنهم مشبهة، ولكل شعبة لقب تعرف به.

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها

فتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة، فامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً، إلى جبال بيرانس غرباً، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب، واستولى دينهم على الأفئدة، ولغتهم على الألسنة، فتعربت هذه الأمم المختلفة، وامتزجت تلك العناصر المتباينة، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقرباً من الفاتح، واستدرار للرزق، وتفقها في الدين، فكثر اللحن وسرت عدواه إلى البادية وقد كان قاصراً على الحاضرة وبقى داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا الوباء بتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ومن لغة الإقليم لوطنية.

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدن الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندي واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية [1] والاقتصادية والمنزلية. وكان لدار الحكمة التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة. ثم رقت الألفاظ لانغماس القوم في الحضارة، وإخلادهم إلى الترف، وإيثار الموالي للكلم

---

(1) لقد كثرت تلك الألفاظ الموصوفة والمنقولة حتى اضطروا إلى أن يضعوا لها بعدئذ معجمات خاصة بها ككتاب التعريفات للجرجاني (816هـ) وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (1158 هـ) وهذا الكتاب والذي قبله من خير ما يستعان به على وضع المصطلحات العلمية الحديثة. فمن الألفاظ الموضوعة لديوان الخراج مثلا: (الحصري) للميراث الذي لا وارث له (والإقطاع) للأرض التي يعطيها السلطان رجلا فتعير لها رقتها، (والطعمة) ضيعة تدفع إلى رجل مدى حياته فيعمرها ويؤدي عشرها، (والتربكة) ما يترك للرجل من خراج سنه. ومن الألفاظ المنقولة: الكوز والحرة والأبريق والطشت والحوان والطبق والحز والديباج والياقوت والفيروز والبلور والكعك والفالوذج والفلفل والزنجبيل والنرجس والنسرين والمسك والعنبر والبستان والجوز واللوز والدولاب والطلسان والفرسخ ألخ عن الفارسية. والبقدونس والزيرفون والمصطكى والقيراط والأنيق والصابون والهيولي والفلسفة والمغنطيس والإقليم والقانون عن اليونانية.

السهل والأسلوب البين، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة، لا بالتلقين والطبع.

واقتبست العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب، كالتبجيل في الخطاب، والاحتشام مع المخاطب، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، كالسفاح والمنصور والرشيد وذي الرياستين وركن الدولة إلخ، والإسهاب في العهود والرسائل، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى.

وما زالت اللغة تتسع وتنمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب، حتى خلافة المتوكل على الله سنة 233 إذ استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب، ويواثبون الفرس، ويغتصبون السلطان. وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون وهم شيعة فجاء المتوكل فعصد الأتراك ونصر السنة. فتقاتل العنصران، وتناضل المذهبان، وابتغى كل منها الفلج والفوز بقهر العرب وكبت الخلفاء، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس، وزالت هيبتها من القلوب، فاستشرف ولاة الأطراف إل الاستقلال، وبدأ بنو بويه[1] فوضعوا أيديهم سنة 334 هـ على شؤون الدولة في بغداد. وامتد نفوذهم إلى جل المماليك الشرقية الإسلامية، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق، وهب أحفاد الأكاسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد أجدادهم، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم. وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يجددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد لقومية. ومن

(1) بنو بويه ثلاثة أخوة أنجبهم سياد، فحالفهم السعادة وخطبتهم السادة، فحالفهم السعادة وخطبتهم السيادة، فتقبلوا في المناصب، وتدرجوا في الحكم حتى اقتسموا بينهم ملك العراقيين العجمي والعربي وفارس والجزيرة، فكان عماد الدولة أبو الحسن علي، وهو أكبرهم، صاحب فارس، وركن الدولة أبو علي الحسن وهو أوسطهن، صاحب عراق العجم. ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، وهو أصغرهم، ملك العراق والأهواز وصاحب الأمر والنهي في بغداد. وقد دام الملك فهم وفي بنهم من سنة 322 إلى سنة 488 هـ.

العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً، فإن المتنبي هو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنَّةٍ لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد. ولكن العربية بقيت في حمى القرآن تدافع سيل الفارسة والتركية الجارف، وقد عز النصير من أهلها، حتى غلب التتار على بغداد فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر، بعد ما خلفت في تلك البلاد شرائع وعلوماً وآداباً لم تقو على محوها الأيام.